أغرب القضايا

بهاء الدين أبو شقة
المحامي بالنقض

القضية الثالثة

# العقرب والضفدع

◆ ◆ ◆

# ■■ العقرب والضفدع

مال ميزان الليل وبينما كنت أهم بمغادرة مكتبى قابلتنى على الباب سيدة أصرَّت على تسليمى رسالة من طبيبة أرسلتها إلىَّ من محبسها فى سجن القناطر، وقررت تلك السيدة أنها بذلك تكون قد نفذت وصية الطبيبة التى سلَّمتها هذه الرسالة وأخذت عليها عهدًا وأشهدت الله عليه أنَّها ستقوم بهذه المهمة بتسليم الرسالة المغلقة لى.

وسألتها عن اسم هذه الطبيبة والتهمة التي حبست من أجلها ومدى صلتى بها فقررت أنَّها مجرد رسول.

ثم أعدت سؤالها وأنا أقوم بفض الرسالة عن فحوى ما جاء بها ومضمونها والغرض منها فأجابت بالإجابة ذاتها السابقة.

وأضافت أنَّها بتسليمها الرسالة لا تكون مهمتها قد انتهت، فقد أقسمت للطبيبة أنَّها لن تكتفى بذلك بل ستلازمنى حتى أقرأ الرسالة وأقف جيدًا على ما جاء بها.. وإزاء إصرارها واستعطافها وتوسلها سألتها عن المصلحة

والدافع الذى حدا بها إلى القيام بهذه المهمة.. فأجابت أنَّها لا مصلحة لها، إذ لا صلة لها بهذه الطبيبة سوى أنَّها قابلتها فى سجن القناطر أثناء زيارة إحدى قريباتها المسجونة فى السجن ذاته.

وقمت بفض الرسالة.. كانت الرسالة تقتر حزنًا وصورة مجسمة من الخسة والندالة والغدر وانعدام الضمير.. كانت سطورها مفعمة بالبكاء والأسى.

روت لى صاحبتها الطبيبة السجينة قصتها بكل ما فيها من مرارة أنَّها كارثة بل مصيبة كبرى حلَّت على رأسها كالمطرقة وريح عاتية هبَّت عليها بقسوة فاقتلعت حياتها من جذورها بلا هوادة ولا رحمة.. بعد أن عانت مرارة الاتهام ومعاناة محاكمتها التي انتهت بمعاقبتها بالإعدام شنقًا عن تهمة تتسم بالبشاعة والوحشية وانعدام العقل والضمير.. قتل ابنة ضرتها عمدًا مع سبق الإصرار والترصد وحرقها.. وأقسمت مرارًا وتكرارًا قسمًا مغلَّظًا بين سطور خطابها بأنَّها بريئة وبأنها لم ترتكب هذه الجريمة البشعة الشنعاء المجردة من كل معانى الإنسانية والرحمة.

واستطردت في رسالتها أنَّها بعد سماعها الحكم بإعدامها شنقًا خاصم النوم جفونها وباتت أرقة لا تنام، ذبلت عيناها من طول السهر والدموع.. تطاردها الكوابيس وتستبد بها الهواجس فى كل لحظة من نهارها وليلها.. كانت صورة عشماوى لا تفارق عينيها.. وتزداد رعبًا على رعب وخوفًا بلا حدود كلما اقتربت صورته من عينيها، بل وقد استبدَّ بها الخيال

القاتل وهى تتصور نفسها معلقة فى حبله.. وأنهت خطابها بأنها لو كانت قد ارتكبت هذه الجريمة فما عادت تستحق الحياة وما كان لها مكان أو مكانة في المجتمع، بل كان عليها أن تتخلَّص من حياتها بنفسها، وزادت فى قسمها أنَّها بريئة.. بريئة.. وبللت الرسالة بدموعها التي أشارت إلى أنها دموع الظلم الذى حاق بها، وأكدت أنَّها لا تعرف شيئًا عن ملابسات قتل الطفلة.. من الذى قتلها.. وما الظروف التي تمت فيها واقعة القتل وحرق جثتها.. ما الدافع إلى هذا القتل.. ومن وراءه.. وهل كان الزَّج بها في آتون الاتهام محض صدفة أم مكيدة مدبرة احكم الاعداد لها.. وأنهت حديثها بأنَّها حتى كتابة هذه الرسالة لا تصدق ما آل إليه حالها وكيف تلاحقت الأحداث لتصل بها إلى هذه النهاية المؤلمة.. بل إنَّ تخيلاتها المضطربة المتلاطمة الرافضة تصديق ما حدث تصور لها الواقع الأليم الذى أوصلتها الأحداث إليه أنَّه مجرد حلم مزعج وكابوس مخيف مرعب لا تدرى متى تفيق منه.. وقدمت رجاء مكررًا واستعطافًا ممزوجًا بالدموع أن أقف إلى جوارها وأتبنى قضيتها وألا أتركها تواجه هذا المصير المؤلم دون الدفاع عنها.

كان لهذه الرسالة وقع مؤثر فى نفسى في هذا الوقت المتأخر من الليل وخصوصا أنَّها وضعت كل ثقتها.. حياتها.. ماضيها.. حاضرها.. بل ومستقبلها أمانة حملتنى إياها وطوقت عنقى بها..

ولم تنصرف السيدة حاملة الرسالة إلا بعد أن حملت رسالة شفوية منى إلى الطبيبة السجينة تبلغها بقبولى الدفاع عنها.

وأرسلت فى طلب أوراق القضية.. وكل صغيرة وكبيرة تتعلّق بها.. كانت أحداثها مثيرة ومحيّرة.. كانت لغزًا تحار في فك رموزه العقول.

كان شابًا وسيمًا معجبًا ومزهوًا بنفسه مغرورًا.. مختالاً من حسن طلعته وجمال هندامه.. كان يستخدم أغلى أنواع العطور وأجودها والتى كانت تنساب على جسده بلا حساب.. كان أشبه بلمبة الكهرباء التى تتهافت عليها الفراشات من كل صوب.. كان سعيدًا مزهوًا فخورًا بذلك.. كانت هذه الفراشات هى الفتيات الحسان اللائى يتساقطن أمامه، وعلى الرغم من أنَّه كان عاطلاً يقضى لياليه فى السهرات الحمراء وينام طيلة نهاره إلا أنَّه كان مبسوط اليد من أموال النساء التى كان يعيش عليها.

ووجد ضالته المنشودة فى إحدى الفتيات.. كانت ثرية ابنة تاجر كبير.. دخل الأسرة ونفذ إلى قلب الفتاة وكأنَّه ميكروب فتاك لعين ينفذ خلسة ليفتك بصاحبه فلا يحس به إلا وقد أشرف على الهلاك.. بحديثه المعسول وأساليبه الملتوية.. اتخذ التاجر منه ابنًا وزوَّجه ابنته وأعدَّ له شقة فاخرة فى عمارته.. وكانت تغدق عليه بسخاء من مال أبيها الذى كان لا يبخل عليها بشئ.

ومرَّت الأيام وهو يرتع فى هذا النعيم، وقد بهر زوجته بحديثه المنمق العذب على نحو حال بينها وبين الوقوف على حقيقة واقعه، وانقضَّت ضائقة مالية على والدها تزايدت مع الأيام وبدأت تتكشف يومًا بعد يوم.. وانتهت بإشهار إفلاسه وكان ذلك إيذانا بإفلاسها تبعًا لذلك، ونضبت «حنفية» الثراء

وجفَّ ماؤها، وقلَّت النقود فى جيبه.. وهنا كشف عن وجهه القبيح وتبخَّرت كلمات الحب والهيام والغرام التى كان يمطر بها زوجته صباحًا ومساءً إلى سب وقذف ولعن.. وكشَّر عن أنيابه وفى خسة ونذالة طلَّقها بعد أن أتى على آخر مليم معها.. وأخذ معه ابنته الوحيدة تاركًا طليقته وحيدة مفلسة غارقة في بحور الألم والحسرة والندم.

وبدأ يبحث عن صيد جديد.. عن بقرة حلوب يستنزفها.. عن فريسة جديدة يلتهمها، ولأنَّه الصياد الماهر الذى لا تخطئ سهامه فى صيد فريسته التى تقع تحت بصره.. فقد وجه سهامه نحو تلك الطبيبة التى التقى بها فى عيادتها الخاصة بعد أن عرف كل ظروفها وجمع كافة المعلومات العامة والخاصة عنها.. كانت على وشك أن يفوتها قطار الزواج وأن تلحق بقطار العوانس.. كانت دميمة ترتدى «نضارة» سميكة متهالكة.. شعرها «أكرت».. ليس بها مسحة جمال تغرى أى شاب على التفكير فى الارتباط بها.. لكنَّها فى المقابل وهو المهم بالنسبة لهذا الشاب – كانت تملك أرصدة كبيرة فى البنوك، فقد عاشت فترة من الزمن تعمل ببلاد النفط.. جمع كل هذه «التحريات» عنها وما إن تأكد أنَّها «بنك متنقل» حتى سال لعابه أمام ثرائها، وبدأ العنكبوت ينسج خيوطه حولها، ولم تصمد طويلاً أمام فنونه ودرايته وخبرته فى الإيقاع بالنساء.. كانت كلمات الإعجاب أشبه بالسهم الذى أصاب سويداء قلبها.. حديث الحب والهيام والغرام الذى لم تسمعه من قبل يخترق أذنيها لأول مرة لينفذ إلى قلبها مباشرة.. وأحسّت بأنَّها فى النهاية

وجدت طوق النجاة.. وعليها أن تمسك به بكل قوتها مهما كان الثمن.. بعد اقتربت من أن تلحق بـ«مدرسة العوانس».. نظرت لنفسها فى المرآة كثيرًا وصوت كلماته المعسولة ترن فى أذنيها وهى لا تصدق أنَّ هذا الغزل الرقيق يخصها.. أوهمها أنَّها واحة الأمان بالنسبة له، واختلق لها قصة من تأليفه، فقد تعوّد سلك دروب النصب والاحتيال.. أقنعها أنَّه عانى الجحيم من زوجته الأولى، وقد آن الأوان أن يعيش فى جنتها تغمره بحبها وتحيطه بحنانها.. أدخل فى روعها أنَّ الجمال نقمة وليس نعمة، فقد كان جمال زوجته الأولى وبالاً عليه، إذ قتله الشك ومزَّق قلبه وأطار عقله وكان سببًا فى فصله من عمله من كثرة مراقبتها وتتبعه كل حركاتها.. كانت سببًا فى أن ينقطع عن عمله، ورفع يديه ورأسه إلى السماء وهو يشكر الله على لقائه بها، وأنَّ هذا اللقاء كان أجمل قدر فى حياته وأنَّ الأيام أرادت أن تنصفه فى النهاية عندما رآها.. لقد رأى فيها العقل الراجح الذى افتقده فى زوجته الأولى.. أحسَّ فى عينيها بالطمأنينة الذى هو فى أمسّ الحاجة إليها.

وأمام ذلك نفضت الطبيبة عن كاهلها كل ما هو قديم وبدأت تجرى وراء أحدث فنون «الموضة» فى الملابس وتتردد على أغلى محلات «الكوافير» وتقتنى أحدث أنواع «الباروكات».. بدأت تخرج أموالها التى اكتنزتها بعد أن قترت وبخلت على نفسها طويلاً.. وتمنحها له بزعم إقامة مشاريع أوهمها بها.. كانت فى حقيقتها سرابًا.. كانت تصدقه فى كل حركة وكلمة.. تعوَّدت أن تقول له «آمين» على طول الخط وهى تسمع حلو حديثه

وهو يقنعها بأنَّ فارق السن فى الزواج أمر سطحى لا يحتسبه إلا «التافهون».. «المراهقون».. مختلو التقدير والتقويم السليم، وهكذا أغلقت بنفسها على عقلها بـ «الضبة والمفتاح».. وانصاعت وراءه وتزوَّجته.

وبمرور الأيام تحوّلت إلى «عجينة» بين أسنانه.. وزاد لين هذه العجينة حينما تبيَّن أنها عاقر.. وبدلاً من أن تتخذ من الطفلة ابنة زوجها ابنة لها تعوّضها عن أمومتها المفقودة بدأت تفتح النيران على الطفلة وتملكتها الغيرة منها.. وكلما نظرت إليها تذكَّرت كلمات الجمال التى كان يرددها والد الطفلة عن أمها، وأصدرت «فرمانا» بمنع الطفلة من الاتصال بأمها بأية وسيلة، وفرضت عليها ستائر حديدية وأسلاكًا فولاذية بل ومنعتها من الخروج والاتصال بالتليفون.. كانت ترى فيها عدوًا بلا سبب.. غير ذلك الوهم الذى كان يسيطر على خيالها العقيم أنَّه سوف ينقض على سعادتها في أية لحظة فيخرجها من جنة حياتها ويفيقها من هذا الحلم الجميل الذى تعيش فيه، وبدأ الشك يساورها فى زوجها وينهش فى فكرها.. بدأت تلازمه فى كل خطواته حتى أصبحت كظله الدائم فإذا تحدث فى «التليفون» كانت ترفع السماعة الأخرى لتتنصت عليه خوفًا من أن يكون المتحدث الآخر «ضرتها» وكان من الطبيعى أن يضيق الزوج ذرعًا بهذا «السجن الانفرادى» وهذه المراقبة التى فرضتها عليه، وأحسَّ بأنها أصبحت كابوسًا تجثم على صدره وقيدًا على مجونه ونزواته ومغامراته الطائشة، ولم يقف تفكيرها عند هذا الحد، فقد أحسَّت على الوجه المقابل بأنَّ ابنة زوجها هى مسمار جحا فى

نعش حياتها الزوجية.. وأنَّ هذه الطفلة هى الجسر الذى يربط بين حاضره وماضيه.. وبدأت الوساوس والهواجس تطاردها ليلاً ونهارًا بل واستبد بها الخيال فى أن يكون زوجها قد عاد إلى زوجته الأولى وردَّها إلى عصمته سرًا أو أنَّه فى سبيله إلى ذلك.

وذات مرة عادت الطبيبة من عملها ورأت الطفلة تتحدث مع أمها في التليفون فلم تتمالك نفسها وانهالت عليها بالضرب المبرح وزادت صرخات الطفلة وحضر الجيران وأنقذوها من بين يديها.. وشكت الطفلة للجيران سوء معاملة زوجة أبيها لها، وأنَّها تهددها بكيها بالنار والموت لو أنَّها تحدثت مع أمها مرة أخرى.

وعندما حضر الزوج شكا له الجيران ما حدث من زوجته لابنته واستنكروا فعلتها وعنتها وقسوتها وسوء معاملتها لتلك الطفلة البريئة وانصرف الجيران، واعتقدت الطبيبة بعدما سمعت ما قاله الجيران عرضًا لسوء معاملتها لابنة زوجها.. أنَّه سيوبّخها ويؤنبها وسيثأر لها وسيتخذ موقفًا صارمًا وحادًا يحول دون تكرار ذلك مستقبلاً أمام دموع ابنته التي كانت تصرخ طالبة النجدة منه وأن يحميها من هذا العذاب المتكرر، لكن هذا التفكير ما لبس أن تبدد.. وضاع أدراج الرياح، فقد انقلب الزوج على ابنته الصغيرة وطلب منها -في لهجة صارمة- تنفيذ أوامر زوجته وقال لها فى عصبية:

- دى أحسن من أمك ألف مرة.. ومن حقها تربيك التربية السليمة.

ولم تمض على هذه الواقعة سوى أيام قليلة.. خرجت الطبيبة لعملها بالمستشفى كالمعتاد وتركت الطفلة وحدها كالعادة بالشقة.. وعادت فى الظهيرة.. ودقَّت جرس الباب ولم يفتح أحد.. اعتقدت للوهلة الأولى أنَّ الطفلة نائمة وقامت بفتح الباب بالمفتاح الذى تحمله معها.. ودخلت الشقة ونادت عليها ولم يرد أحد، وما إن فتحت باب إحدى الغرف الخالية بالشقة حتى تسمَّرت فى مكانها عندما وجدت الطفلة ملقاة على الأرض وهى جثة متفحمة.. وعقدت المفاجأة لسانها لبرهة يسيرة وخرجت تصرخ وتستغيث بالجيران.

وباشرت سلطات التحقيق.. التحقيق في القضية.

وتبيَّن من تقرير الأدلة الجنائية التى انتقلت فور الحادث إلى مسرح الأحداث أنَّ هناك آثارًا لمادة «البنزين» وأنَّ النيران اشتعلت فى الجثة بعد سكب البنزين عليها فشوَّهت معالمها تمامًا.. وحضر الزوج وبكى بكاءً مريرًا منتحبًا بهيستيريا وهو يصرخ بأنَّه فقد أعز شئ لديه.. خسر ابنته الوحيدة التى خرج بها من الدنيا.. أمله الوحيد في الحياة.. فلم يكن أمامه فى الحياة من أمل في الذرية سواها خاصة وأن زوجته الطبيبة عاقر.. وكال لزوجته الاتهام.. وهمَّ في ثورته العارمة بالاعتداء عليها.. لولا إبعاد رجال الشرطة له وطلبهم منه الهدوء والروية كى يصلوا إلى الحقيقة.. وصاح الأب وصرخ صرخة من أعماقه اهتزَّت لها قلوب رجال التحقيق.. الحقيقة واضحة مثل الشمس.. هى التى قتلت ابنته وحرقتها، وأنَّها مجرمة آثمة يديها ملوثة بدماء ابنته

الطاهرة، وأورد أنَّ الغيـرة والـوهم كانـت تـنهش فى قلبهـا وتلغـى عقلهـا إذ راودتها الشكوك في الفترة الأخيرة بأنَّه سيعيد أمها إلى عصمته، وكلمـا سـيطر عليها هذا الخيـال.. زاد سـوء معاملتهـا للطفلـة.. والاعتـداء عليهـا بسـبب وبدون سبب، واستشهد بالجيران الذين أيدوا روايته كاملة وشهدوا بمـا رأوه من إهانات واعتداءات بالضرب على الطفلة.. وأنَّهم كثيرًا ما سمعوا صراخها وهى تستغيث من اعتداءات زوجة أبيها.

وانتهى الزوج فى شهادته على الإصرار بطلب القصاص العـادل منهـا حتى لا يضيع دم ابنته الوحيدة هدرًا وأنَّه لن يرتاح له بال ولن يهـدأ لـه حـال ولن يستقر له فكر إلا وحبل «عشماوى» وقد لفّ على رقبتها.

وقرأت أوراق القضية مليًا وتصفَّحتها وأمعنت في تحليـل أحـداثها في أدلتها وخاصة تقرير الصفة التشريحية، فقد استوقف نظرى وأنا أتفحص كـل كلمة فيه بدقة وإمعان متناهيين.. أمـر فى غايـة الأهميـة فى الـدعوى الماثلـة.. مؤثر في مصيرها وفى وزن وتقدير الأدلة في الدعوى.. يقلـب كافـة المـوازين فيها.. ذلك أنَّه من عادتى فى إقران هذه القضايا أن أمعن فى تمحـيص الـدليل الفنى «تقرير الصفة التشريحية».. وأن أقرأ كل كلمة فيه بروية ودقـة وتحليـل لكل لفظ فيه.. إذ يغلب على الكثير قراءة نتيجة التقرير دون المقـدمات التـى تبنى عليها هذه النتيجة، وقراءة المقدمات أمر ضرورى ومنطقى، إذ يبين منها كثير من الجزئيات على نحو مفصل لا يمكن الوقوف على النتيجة الصـحيحة والحقيقية إلا بربط هذه النتيجة بتلك المقدمات في استخلاص منطقى سـائغ

لا يشوبه أي عسف أو شطط.

استوقف نظرى أنَّه بالكشف الظاهرى على الجثة تبيَّن أنَّها لفتى في الثانية عشرة من العمر.. ولأنَّ الجثة كانت متفحَّمة فإنَّ الطبيب الشرعى لم يستطع أن يحدد كيفية الاعتداء الذى وقع على المجنى عليها والآلة المستخدمة في الاعتداء ومواضع هذا الاعتداء من جسد الجثة.. وإن كان قد أثبت أنَّ الحروق التى وجدت بالجثة غير حيوية، أى أنَّ الوفاة قد حدثت أولاً ثم تم إشعال النار فيها..

كانت كلمة «فتى» الذى يبلغ من العمر اثنى عشر عاما هي طوق النجاة، هي المفتاح الذى سيفتح الأبواب المغلقة على الحقيقة التي قدَّر لها أن تقبر خلف هذه الأبواب.. وكان علىَّ ابتداء لكى أقتحم الأسوار المنيعة لتلك القضية أن أحرر وأودع أسباب النقض في الميعاد القانوني –أربعين يومًا من تاريخ الحكم قبل تعديلها إلى ستين يومًا– وأودعت مذكرة بأسباب النقض تضمنت فيما تضمنته النعى على الحكم بالخطأ في الإسناد على نحو أورده مورد البطلان، إذ أنَّ البيّن من أوراق الدعوى وما انتهت إليه النيابة قيدًا ووصفًا للواقعة وما جرت عليه محاكمة الطاعنة وما أوردته المحكمة فى مدونات حكمها أنَّ الجثة هى جثة ابنة زوجها «فتاة» فى حين أنَّ الجثة التى جرى تشريحها – من واقع تقرير الصفة التشريحية وما أورده تحت بند «الكشف الظاهرى» – كانت جثة فتى أى ولد، وشتان بين الاثنين، كما أنَّ الفتاة المقول بقتلها تبلغ من العمر سبع سنوات، في حين أنَّ الجثة لفتى يبلغ

اثنى عشر عامًا.. وإذ كانت المحكمة قد أسست قضاءها في إدانة الطاعنة وثبوت التهمة قبلها وهى قتل طفلة «بنت» عمرها سبع سنوات.. وذلك على خلاف الثابت فى تقرير الصفة التشريحية –على النحو المار بيانه في الأوراق– فإنَّ الحكم المطعون فيه يكون قد أقام قضاءه بما يخالف الثابت فى الأوراق، وينبئ أنَّ الواقعة لم تكن واضحة أمام عيون المحكمة مستقرة فى وجدانها استقرارًا يؤمن معه القول إنَّها عندما قضت الدعوى كان قضاؤها عن بصر وبصيرة خاصة وأنَّ من المقرر أنَّ الأحكام يجب أن تبنى على أسس صحيحة من أوراق الدعوى فإذا كان مبناه ما يخالف الثابت فى الأوراق أو ما لا أصل له فيها فإنَّه يكون مشوبًا بعوار البطلان وبالخطأ فى الإسناد والقضاء بما يخالف الثابت فى الأوراق..

وانتهت محكمة النقض إلى قبول الطعن بالنقض وإلغاء الحكم المطعون فيه وإعادة محاكمة المتهمة أمام دائرة أخرى..

وبذلك تم التغلب على عقبة كبرى كانت تحول بين المتهمة وبين الحياة، وقد كان مصيرها حتمًا الإعدام فيما لو رفض الطعن بالنقض خصوصًا وأنَّ التهمة المنسوبة إليها تهمة شنعاء وجريمة نكراء تشيب لها الرؤوس وكانت موضع ازدراء واستهجان من كثيرين ممن واصلوا متابعة أحداث هذه القضية إعلاميا.. متعاطفين مع الأب.. منحازين وبقوة وإصرار نحو إعدام تلك الطبيبة التي انتزعت الحياة من طفلة بريئة لا جريرة لها ولا ذنب وأنَّ الجميع في ترقب واستعجال لذلك اليوم الذى ينفذ فيه حكم الإعدام لتكون عبرة

لكل من تسوّل له نفسه الاستهانة بأرواح الأبرياء وبالنفس البشرية التي حماها الله وحباها وحافظ عليها وحرم قتلها بغير حق.

كان نقض الحكم وإعادة محاكمة المتهمة من جديد أمام دائرة أخرى بادرة خير -من وجهة نظرى- خاصة وقد انتابنى إحساس وراودنى فكر استبد بى فى أنَّ هناك سرًا ولغزًا محيرًا وراء هذه الجريمة وأحداثها لابد من فك طلاسمها.

كانت جلسة المحاكمة الجديدة للمتهمة.

اكتظت القاعة إلى آخرها بالحاضرين فلم يكن فيها موضع لقدم.. جاء الجميع ليشهدوا نهاية هذه المرأة الشريرة الآثمة المجردة من أي إحساس أو عقل أو منطق أو ضمير أو دين.. جاءوا ليسمعوا حكم الإعدام من جديد، وقد أدهشهم إلغاء الحكم الأول وتساءلوا في غرابة ودهشة.. بل وفى استهجان من بعضهم.. كيف يلغى هذا الحكم وهى القاتلة اللعينة لطفلة بريئة.. بل لم تكتف بقتلها فأشعلت النيران في جسدها الطاهر البرىء.. وحكم الرأي العام المسبق سيف مسلط على رقاب الجميع لا يمكن إغفاله أو تجاهله خصوصًا في قضايا الرأي العام.. عندما يتأثر هذا الرأي لحدث معين فيتعايش معه وكأنَّه طرف من أطرافه.. فيصدر أحكامه الخاصة وينصب من نفسه محققًا وقاضيًا يصدر أحكامًا تحكمها الأهواء والعاطفة والرؤية الشخصية وعدم الإلمام والدراية بالأدلة في الدعوى التي لا يستطيع أن يقدرها أو يدلى بدلوه الصحيح فيها إلا أربابه من المتخصصين والفنيين

والقارئين والباحثين والمحللين لوقائع الدعوى والظروف التي وقعت فيها وأدلتها ومواد القانون المنطبقة عليها.

وجاءت لحظة المحاكمة..

وقفت فى قفص الاتهام شاردة واجمة يرتسم أمام عينيها شبح حبل المشنقة الذى مازال يطاردها.. كانت شاخصة ببصرها إلى السماء وكأنَّها تدعو الله أن يقف إلى جوارها وأن يبدد هذا البلاء الذى حلَّ بها .. أما الزوج فقد حضر إلى الجلسة باكيًا مهلاً صارخًا مفوضًا أمره إلى الله فيها.. وفى المصيبة التي ألحقتها به.. فقد قتلت أعز الناس إليه.. ابنته الوحيدة.. فدمَّرت حياته.. وقضت على آماله في الحياة.. فقد كانت ابنته الوحيدة.. معلنًا أن إعدامها لن يشفى غليله وأنَّ كنوز الدنيا لن تعوّضه عن ضياع ابنته التى اغتالتها تلك الزوجة الشريرة منعدمة القلب والإحساس والضمير.

كان هذا هو حديث الزوج أمام المحكمة، وقد مسَّ شغاف قلوب الحاضرين وأدمى قلوبهم على الطفلة الضحية البريئة بل إنَّ البعض قد اغرورقت عيناه بالدموع.

ثم أعقب ذلك مرافعة النيابة التى تركزت على أنَّه لابد من تطبيق مواد الاتهام عليها «٢٣٠، ٢٣١» من قانون العقوبات.. والتى تقضى بإعدامها شنقًا جزاء وفاقًا لفعلتها الشنعاء التي يهتز لها عرش السماء، فقد ارتكبت إثمًا لا يغتفر وجريمة لا مناص من القصاص لها، وصوَّر المتهمة على أنَّها وحش كاسر تجرَّدت من آدميتها وإنسانيتها وضميرها.. فباعت آخرتها

بدنياها.. ولبست ثوب الوحوش فى الغابة وانقضت بلا شفقة ولا رحمة وقد تحجَّر قلبها وتيبست مشاعرها وهى تقتل طفلة بريئة غيلة وتسكب البنزين عليها لتقضى على كل أثر لها فى الحياة حتى تستأثر بحب زوجها وتستحوذ عليه.. فكانت بمثابة الدبَّة التي من فرط حبها لصاحبها قتلته.

وتساءل فبعد كل هذه الوحشية.. يتعين ألا ننظر إليها إلا من عين واحدة هي عين القصاص.. القصاص العادل.. واستشهد بقوله تعالى.. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ﴾وقوله ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ﴾ وبالقصاص العادل لقوله : ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ وأنهى مرافعته كما بدأها بالمطالبة بإعدامها وألا تأخذ المحكمة رأفة بها فى دين الله، فمن لا يرحم لا رحمة له.

وطلبت المحكمة منى كدفاع المرافعة.

وكان طلبى الذى أصررت عليه مناقشة الطبيب الشرعى الذى أجرى تشريح الجثة والذى كان حاضرًا معلنًا من النيابة مع بقية شهود الإثبات طبقًا لما يستوجبه القانون من إعلان شهود الإثبات بالجلسة المحددة.. وتم سؤالى له..

سألته:

- ثبت فى تقريرك أنَّ الجثة لفتى فماذا تقصد بهذه العبارة..

- فأجاب وهو فى دهشة من سؤالى، ولم يدر بخلده أنَّ هـذا السـؤال هـو مقطع النزاع فى تلك القضية وأنَّه طوق النجاة بالنسبة للمتهمة، بل وإن إجابته ستقلب القضية رأسًا على عقب فأجاب إجابة ملأها التهكم:

- معروف أنَّ الفتى يعنى ولد والفتاة تعنى بنت.

ولاحقته بسؤال آخر حتى أضع آخر نقطة على الحروف.

- هل الجثة التى قمت بتشريحها لولد أم بنت؟

فأجاب والثقة تملأ صوته إلى حد استهجان هذا السؤال.

- بالتأكيد ولد.

فعاودت سؤاله:

- تبين أنَّ الجثة كانت محترقة فكيف توصَّلت إلى أنَّها جثة ولد؟

فأجاب إجابة تقطر غيظًا وكأنى أتهكم على قدرته العلمية.

- ده شغلى.. وعلى العموم الجهاز التناسلى للذكر يختلـف عـن الأنثـى، وقد تبين لى من فحص الجثة وتشـريحها أنَّ الجهـاز التناسـلى للجثـة خـاص بذكر.

واستطردت فى سؤاله:

- ما سن الجثة التي قمت بتشريحها؟

- قرر أنَّ سن المجنى عليه اثنى عشر عاما.

فعاودت سؤاله:

وكيف استطعت تحديد هذه السن علميًا؟

- بالكشف على مقاطع الأسنان أمكن تحديد ذلك.

وباستطراد سؤاله.

هل يمكن من الناحية الفنية بالكشف الطبى تحديد سن طفل عمره سبع سنوات؟

- طبعًا. كلها أمور تعتمد على أسس علمية.

فعاودت سؤاله.

هل من الممكن أن تنتهى نتيجة الكشف على جثة طفل سنه سبع سنوات أن تأتى النتيجة بأنَّه في الثانية عشرة من عمره؟

- فأجاب مستهجنًا السؤال.

- بالتأكيد لا.

ثم أعلنت أنَّ سؤالى له سيكون السؤال الأخير.

- قررت أنَّ الحروق التى بالجثة حروق غير حيوية أى بعد الوفاة فهل تبينت سبب الوفاة الأصلى؟

أجاب:

- لم أتبين من الجثة وجود إصابات قطعية أو رضية نظرًا لتفحمها وبالكشف على عظام الجثة لم يتبين لى وجود أية كسور بها أو أي إصابات أخرى وعلى ذلك فإنَّه من الناحية العلمية مادام أنَّ الحروق ثبت أنَّها غير حيوية أي أنَّ الحروق حدثت بعد الوفاة أي لم يكن المجنى عليه على قيد الحياة وقت حرقه وإنما كان ميتًا مفارقًا للحياة.

وطلبت من المحكمة سؤال الزوج بعد مناقشة الطبيب الشرعى فاستجابت لذلك.. فسألته:

ما رأيك فيما ورد بحديث الطبيب الشرعى من أنَّ الجثة التى وجدت فى الشقة لذكر وليست لأنثى وأنَّ عمر الجثة اثنى عشر عامًا، في حين أنَّ ابنتك تبلغ من العمر حسب شهادة الميلاد التي قدمتها سبع سنوات؟

فامتقع وجهه غيظًا وبانت حدّة الشراسة على ملامحه، وهو يرد بأنَّ هذا تهريج وعبث وإهدار لدم ابنته.. بل وتطاول فى حديثه على الطبيب الشرعى بكلمات نبهته المحكمة أنَّها ستأخذه بالعقاب إن لم يلتزم بأدبيات المحاكمة.

وأعدت سؤال الزوج:

- هل يوجد مفتاح آخر للشقة مع أحد غيرك وزوجتك؟

فأجاب وقد ازدادت عصبيته وارتباكه.

- بالطبع لا هى الوحيدة التى معها المفتاح وأنا ليس معى أى مفتاح للشقة.

وفى تلك اللحظة..

خرجت الزوجة عن صمتها الذى لاذت والتزمت به منذ بداية الجلسة وصرخت بأعلى صوتها من داخل قفص الاتهام:

- «لا تصدقوه إنَّه كاذب وسألته فى دهشة.. لماذا تكذب؟ لماذا تخفى الحقيقة.. انت معاك مفتاح زيى.. ليه بتكذب؟ وتقصد إيه من كده.. حرام عليك اتقى الله وقول الحقيقة».

وطلبت المحكمة منها التزام الصمت والهدوء ومنى المرافعة..

طلبت لها البراءة وبحق على سند من أنَّ حديث الادعاء وقولة الاتهام على المتهمة أنَّها قتلت ابنة زوجها مما كان يقتضى بطريق اللزوم الواقعى والفنى والدلالى أن تكون الجثة التى عثر عليها فى مكان الحادث والتى تم تشريحها جثة فتاة.. وأنَّ عمرها سبع سنوات.. وذلك على نقيض ما ثبت بالدليل الفنى الذى لا يكذب أنَّ الجثة لذكر وليس أنثى وأنّه يبلغ من العمر اثنى عشر عاما وليس سبع سنوات.. وهو ما أكده على نحو قاطع وجازم الطبيب الشرعى الذى شرح الجثة.. أولاً أنَّ الجثة التي تم تشريحها كانت محترقة تمامًا مختفية المعالم.

ثانيًا.. إنَّها لذكر وليست لفتاة.. ودلل على ذلك وأسس رأيه على أسس علمية سليمة أوردها أمام المحكمة.

ثالثًا.. أنَّ الجثة موضوع الاتهام لذكر يبلغ من العمر اثنتى عشرة سنة، في حين أنَّ عمر المجنى عليها سبع سنوات على نحو يستحيل معه أن تكون الجثة المعثور عليها جثة ابنته التي تبلغ من العمر سبع سنوات.

رابعًا.. أنَّ الحروق.. حروق غير حيوية أي حدثت بعد الوفاة مما ينبئ أنَّ حرق الجثة كان بعد وفاتها وأنَّه من واقع حديث الطبيب الشرعى لا يمكن القطع لسبب الوفاة.. هل نتيجة اعتداء بأية آلة عليه؟ لم يستطع تحديدها أم أنَّ الوفاة طبيعية؟

وركونًا إلى هذه الحقائق العلمية المؤكدة والموثَّقة بشهادة الطبيب الشرعى المشرع فإنَّ الجثة موضوع الاتهام ليست للطفلة نجلة الزوج المدعى بقتلها من المتهمة.

وهنا وقف وكيل النيابة المترافع متسائلاً في انفعال:

- أمال الجثة تبقى جثة مين؟

وأجبت على الفور:

- ذلك ليس شأن المتهمة أو الدفاع، وهو شأن وواجب على سلطات البحث والتحقيق.. وكل ما يعنى الدفاع فى المقام الأول إثبات أن ما أسند إلى المتهمة من قتل ابنة الزوج أمر بات من المتيقن أنَّه مخذول من زاوية الواقع، ملفوظ من الوجهة الفنية، متناقضًا تناقضًا يستعصى معه المواءمة والتوفيق مع الدليل الفني في الدعوى.. وبات على نحو جازم وقاطع أنَّ التهمة

الموجهة للمتهمة من قتلها ابنة زوجها ليست قائمة على سند من الواقع أو الحقيقة أو الدليل المعتبر قانونًا.

واستطردت فى دفاعى.. أنَّ الواقعة قد خلت من شاهد يشفى غليل الحقيقة المفقودة فى الدعوى والتي هى ظلال سوداء حجبت رؤيتها.. بل وحالت دون الوصول إليها.. لسنا أمام شاهد رؤية يشهد أنَّه رأى المتهمة وهى ترتكب الحادث، فالحقيقة فى الدعوى لها صورة مجهولة وخصوصًا أنَّ الزوج معه مفتاح وتقليد مفتاح لباب أي شقة.. ليس أمرًا مستعصيًا أو عسيرًا، وشهادة الجيران قطعت بأنَّ الزوجة عندما فتحت الباب فى هدوء وطمأنينة فوجئت بالجثة فتعالت صرخاتها فى هيستيريا.

وأنهيت مرافعتى:

- تلك هى الحقيقة المتيقنة الآن أنَّ المتهمة لم تقتل ابنة زوجها وأنَّ الجثة التي وجدت محترقة في الشقة جثة طفل آخر.. وهى ليست مكلفة هى أو الدفاع بالبحث عن صاحب هذه الجثة أو الوقوف على سر اختفاء الطفلة.. إنَّ وراء اختفائها سرًا.. أنا على يقين أنَّ الأب يعلمه جيدًا وعلى الشرطة والنيابة العامة، باعتبار أنَّها الأمينة على الدعوى العمومية مواصلة البحث والتحقيق وصولاً إلى الحقيقة وهداية للصواب الذى ينشده ويطلبه الجميع.. أين اختفت الطفلة.. ومن الذى أخفاها وما مقصده من ذلك.. وما سر الجثة التي وجدت محترقة في الشقة.. ومن الطفل صاحب هذه الجثة؟!

وانتهت مأساة الطبيبة وشبح حبل المشنقة الذى كان ملتفًا حول رقبتها.

نطق رئيس المحكمة بعد مداولة في القضية امتدت حوالى أربع ساعات احتبس الجميع أنفاسهم وصوت القاضي يعلن..

حكمت المحكمة ببراءة المتهمة مما أسند إليها من اتهام.

سقطت مغشيًا عليها.. حاول الجميع إفاقتها أكثر من مرة بعد أن سمعت حكم البراءة وكأنَّها لا تصدق أنَّها ولدت من جديد.. وأنَّه قد كتبت لها الحياة مرة أخرى.

ومرَّت الأيام والطبيبة تتردد على مكتبى بين الحين والآخر من قبيل السؤال والتعبير عن العرفان بالجميل.. كانت تقصُّ لى بحرارة عن دفء الأيام الخوالى التى عاشتها مع زوجها وأنَّها كانت سعيدة معه بلا حدود، رغم المبالغ التى نهبها واستنزفها منها، ومع كل ما صنعه بها ومعها وما لاقته منه من قسوة الاتهام الذى كاد يودى بحياتها.. إلا أنَّ الحنين كان يعاودها، وكانت تحلم بأن يعود إليها مرة أخرى وتتلمس له الأعذار فيما أقدم عليه.. وهجرته.. وتركه مصر بعد الحكم ببراءتها.. وتلك مأساة الحب فى كل زمان ومكان عندما يكون من طرف واحد أو إذا كان محمولاً على المصلحة المجردة.. إنَّها عيون المحب المسحورة بالمحبوب فلا يرى عيوبه ولا يحس بسوء تصرفاته مهما اتسمت بالخسة والندالة.. وصدق المثل.. «حبيبك يبلع لك الزلط» أو «مراية الحب عمياء».

كان يحلو لها سماع سيرته وتقصى أخباره من أصدقائه.. ولم تيأس من التفكير فيه حتى بعد أن عرفت أنَّه سافر إلى الخارج وتزوَّج من سيدة أخرى توسَّم فيها الثراء والبذخ والإنفاق عليه بلا حدود.. كانت النار تنهش فى قلبها وهى تروى لى هذه القصة، ولكنَّ حبَّها له لم يتزحزح من قلبها وحديثه الحلو لم يفارق أذنيها وصورته الأنيقة لم تبرح عينيها والأمل في عودته لا يفارقها لحظة.

وذات يوم جاءت لزيارتى كالمعتاد.. كان الحزن يملأ عينيها وهى ترتدى ملابس الحداد، وأخبرتنى بصوت مفجوع بأنَّ زوجها قد لقى حتفه فى الخارج فى حادث أليم.. إذ اكتشفت زوجته الأجنبية التي تكبره بعشرات السنين أنَّه يعبث بمشاعرها.. وبخيانته لها.. واستيلائه على أموالها التي ائتمنته عليها وأطلقت يده في التصرف فيها.. كما اكتشفت وتأكدت أنَّه قد أعدَّ الخطة للتخلص منها والهرب بأموالها.. فقررت الخلاص منه حتى لا ينعم بثروتها..

وكانت المفاجأة الكبرى التي هزَّت كيانها.. وبدَّدت شعورها نحوه وأنَّه كان وهمًا لا يستحق أنَّ ابنته مازالت على قيد الحياة وأنَّها كانت فى صحبته فى الخارج وقد أعادتها السفارة إلى أمها.

واستطردت وهى تبكى بكاءً ملأته الحسرة والندم والاستغراب متساءلة..

لماذا قابل وفاءها وإخلاصها له بالغدر والخسة والنذالة .. كيف أنَّه لم يكتف بما سلبه منها من أموال.. لم يقف طمعه عند حد.. دبر اتهامها للخلاص منها حتى يحكم عليها بالإعدام ويرث أموالها كى يخلو له الجو ليقتنص صيدًا جديدًا بعد أن هرَّب ابنته إلى الخارج.

وسألتها كيف توصَّلت إلى كل هذه الحقائق.

فأجابت والأسى والحسرة يعتصران قلبها.

بعد عودة ابنته من الخارج تسلمتها أمها وأبلغت الشرطة بالحقيقة كى تثبت براءتى فعلاً وواقعًا غير مكتفية بحكم المحكمة بالبراءة..

ونشطت الشرطة بعد هذا البلاغ وأجرت التحريات بحثًا عن الحقيقة، وقد تحققت من هذه التحريات أنَّ الزوج هو الذى دبَّرها لكى يتخلَّص منها.. ويعيش مع صيده الجديد ويرث أموالها بعد إعدامها.. وأنَّه فكَّر في خسة ودبَّر في ندالة وخطط بلا ضمير لإنجاح فكرته الشيطانية فاتفق مع «تربى» كى يحضر له جثة فتاة فى سن ابنته توفيت في توها.. موهمًا إياه أنَّه أستاذ بكلية الطب وأنَّه يسعى لشراء الجثة حتى يدرِّب طلابه عليها، إلا أنَّ القدر لم ينصفه ووقف إلى جانب زوجته لينقذها من حبل المشنقة، إذ لم يتمكن «التربى» من العثور على جثة طفلة ميتة حديثًا.. وكل ما وقع تحت يده جثة هذا الطفل.. فقدَّمها إليه.. وتسلَّمها منه فى عجلة من أمره.. دون أن يتبين أمر هذه الجثة.. ووضعها في عجالة في الشقة وسكب عليها البنزين ونفذ جريمته دون أن يدرى فيما إذا كانت الجثة ذكرًا أم أنثى وأشعل فيها النيران

كى تأتى عليها تمامًا، ولكن إرادة الله كانت فوق كل إرادة وتفكير وتدبير وتخطيط، وانكشفت نذالته وانفضح سره.. وخرج من الدنيا ولم يأخذ منها سوى الذنوب واللعنات.. ودعاء المظلومين.. فلا رحمة له فى الأرض ولا فى السماء..

كانت هذه آخر كلمات الزوجة.. المخدوعة..